الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة

للأستاذ عبد الرحمن بن معلا اللويحق

عالج هذه الكتاب مشكلة الغلو في الدين التي تؤرق المجتمعات الإسلامية في عصرنا الحاضر، وقد تحدث عن الأسباب ورسم طرق العلاج.

ترى ما مقياس التدين؟

سؤال يجيب عليه مقدم الكتاب فضيلة الأستاذ الشيخ زين العابدين الرابي الذي يقول: "للتربية الحق مقياسان: مقياس الاستجابة لمطالب المنهج ومقتضياته، ومقياس الطاقة والوسع، والمقياسان مترابطان متكاملان والاستجابة للمنهج مشروطة بالقدرة في المجال العلمي؛ والغلو منزع شاذ لهذين المقياسين".

والإسلام يقوم على ثلاث حقائق:

الأولى: حقيقة العلو والعصمة في مصدر التلقي.

الثانية: حقيقة وضوح المنهج.

الثالثة: حقيقة الاستقامة على المنهج.

والإسلام جاء لراحة الناس وسعادتهم، ولكن الناس بعدوا عن الحق بسبب الشطط في العلاقة بالدين: فهما اعتقادا وسلوكا.

معنى الغلو:

ترى ما المقصود بالغلو في الدين؟

سؤال يجيب عليه المؤلف الفاضل بقوله: يري بعض الناس أن المغالين هم المعرضون عن شرع الله في مجرد التمسك بالواجبات الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة، كالمحافظة على الصوات غلوا مخرجا عن حد الاعتدال.

بينما يرى الغلاة: أن ما هم عليه هو الاعتدال وما يمارسون الآخرون هو الغلو، والمغالى يقسم في أخذه للدين بالشدة وفي معاملته للآخرين بالعنف، ويقسم بالتقطع والتعمق في أفعال الدين.

الغلو في العصر الحديث:

الغلو في العصر الحديث وليد السجون والزنزانات الانفرادية – ولم يكن مع هؤلاء قرآن ولا كتاب – إلى جانب أنهم غير متخصصين في العلوم الشرعية، ثم إن الغلو ما هو إلا انعكاس لأوضاع يعيش فيها الناس مثل غياب شرع الله عن الحكم وغربة الإسلام في ديار المسلمين واستخدام القسوة والعنف مع التيار الإسلامي، واستخدام اللين والتدليل مع أعداء الإسلام والمسلمين والاتهام للإسلام والاستهزاء بالقضايا المنسوبة إلى التيار الإسلامي في وسائل الإعلام والتحلل الأخلاقي والأوضاع الاقتصادية، وسوء توزيع الثروات، وانهيار قيمة العمل وغياب

دور العلماء والتغريب والعلمنة والهزائم السياسية والعسكرية والتآمر على الدين الإسلامي وغلبة الحياة المادية.

والغلو في هذا العصر ما هو إلا رد فعل لأوضاع شاذة خاطئة تحياها المجتمعات الإسلامية.

ولاحظ المؤلف الفاضل أن حوادث غلو النصاري في مصر أكثر من حوادث غلو المسلمين، وأن مشكلة الغلو عند المسلمين مضخمة أكثر من حجمها الطبيعي – إلى جانب أن تيار الغلو عند الأقباط يتقدم في وجوده على تيار الغلو عند المسلمين، ويتمثل التيار القبطي الأب المعاصر للكنيسة القبطية الذي كان دور له في كثير من الأحيان، وخطبه تتعرض للقضايا السياسية والاجتماعية، وأصبح التيار الذي يتزعمه قيادي بأن تكون للكنيسة ذاتيتها في مواجهة الدولة ومؤسساتها، ومع ذلك فلم يوصم بالغلو ولم يتعرض له أحد بالنقد، ويأخذ هو وتابعيه حريتهم الكاملة في القول والفعل، إلى جانب اتهامهم الجامعات الإسلامية بالغلو والتطرف ومحاربة المسيحيين.

الأصولية:

الأصولية في الغرب تعني التمسك الحرفي بالإنجيل، وأبرز صفات الأصولية الاهتمام بالجانب السياسي والاستيلاء على الحكم والامتناع عن بعض المحظورات، كشرب الخمر والرقص.

وتدل كلمة الأصولية في الغرب بمجتمعاته المختلفة على الازدراء، لأن الأصولية – في رأيهم – تدل على ضيق الأفق والتعصب الأعمي والنزعة المناهضة للتقدم وانتشار العلم والنزعة الطائفية وانتقال مصطلح الأصولية إلى البلاد الإسلامية.

والغربيون يعدون الشيعة – بعد الثورة الإيرانية – من أبرز الأصوليين في العصر الحديث.

ويقولون: إن عدم الفصل بين الدين والحياة من الغلو، ونظروا إلى ذلك من الناحية السياسية.

وقالوا: إن الدعوة بالعودة إلى الله وتطبيق الشريعة الإسلامية من الغلو، وكذلك جهاد الكفار واليهود والنصاري.

ولا يعدون ما يحدث للمسلمين في الهند ولا في البوسنة والهرسك أو غير ذلك من الغلو، ولا يعدون محاربتهم للإنسانية والتقدم العلمي والتطور من الغلو، ولا يدارون خططهم ولا أهدافهم التي يعملون على تحقيقها في العالم الإسلامي.

يقول بوجين رستو رئيس قسم التخطيط بوزارة الخارجية الأمريكي ومستشار الرئيس جونسون في الستينيات (لا تستطيع أمريكا إلا أن تقف في الصف المعادي للإسلام، أي إلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية، لأنها إن فعلت غير ذلك تكون قد تنكرت للغتها وفلسفتها

وثقافتها ومؤسساتها.. إن هدف العالم الغربي في الشرق الأوسط هو تدمير الحضارة الإسلامية فإن قيام إسرائيل جزء من هذا المخطط).

المؤسسات التعليمية الأجنبية: وفي مرحلة مبكرة أقاموا المؤسسات التعليمية الأجنبية في وسط البلاد الإسلامية وجذبوا إليها الفتيان من المسلمين وكان من أهدافها:

1- الاستعمار طريق تغيير الأفكار والموارد الاجتماعية تحمل في طياتها المؤثرات النصرانية.

2- نشر اللغات الأجنبية الذي يساعد على نشر ثقافة ذلك البلاد. وقد أصبح المتخرجون في هذه المدارس الأجنبية يشرفون على التعليم والتوجيه الرسمي، وقاموا بالضغط على الثقافة الإسلامية في برامج المدارس وفي الوظائف الحكومية.

كما أصبح الكثيرون من خريجي هذه المدارس صحفيين وكتابًا ينشرون كل ما هو مخالف للقيم الإسلامية، كالصور العارية وارتداء أحدث الأزياء الغربية ونشر المبادئ الإلحادية الهدامة والإسراع بنشر كل ما هو غربي من العادات والتقاليد.

يقول المستشرق الإنجليزي هاملتون جب: "لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدرسة العصرية أن يترك في المسلمين – على غير وعي منهم – أثرًا يجعلهم في مظهرهم العام لا دينين إلى حد بعيد،

وقد أخذت دائرة نفوذ الإسلام على حياة المسلمين الاجتماعية تضيق شيئًا فشيئًا حتى انحصرت في طقوس محددة".

الوثيقة الروسية: وقد نشرت مجلة العلم والدين الروسية في عددها الصادر في أول يناير لسنة 1964 خطة الشيوعية الكاملة للاستيلاء على العالم الإسلامي، ثم ذكرت في نهاية الوثيقة ما يأتي (وفي المحيط العربي كله يعمل أنصارنا بجد – وقد استطاعوا أن يصلوا إلى المناصب الرئيسية في الوزارات وفي الإدارات الحكومية والشركات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية – وعلى مر الأيام يزداد عدد أنصارنا الذين يتولون المناصب ذات الأثر الفعال في إيجاد الجو الصالح للتحرك الثوري – وحسب تعليماتنا لهم جعلوا من الوزراء والمسئولين الذين لا يشك في إخلاصهم للنظام الرجعي الحاكم المعادي للشيوعية واجهة يعملون تحت ستارها ما يريدون في أمن وطمأنينة مع اليقظة، والحذر من أن تحوم حولهم الشكوك لأنهم يتسترون بأولئك المسئولين). يقولون هذا في صراحة وينشرونه في صحافتهم ولا يدارون، بينما شباب الجماعات الإسلامية في السجون والمعتقلات يعذبون بأيدي المسلمين، ومن هنا نشأ الغلو في السجون والمعتقلات والزنازين، لأن الشباب أحس بغياب شرع الله عن الحكم وغربة الإسلام في ديار المسلمين ونشر الأفكار غير الإسلامية في أجهزة الإعلام والتحلل الأخلاقي وتردي الأوضاع الاقتصادية وسوء توزيع الثروات وانهيار قيمة

العمل، وغياب دور العلماء والتغريب والعلمنة والهزائم العسكرية والسياسية والتآمر على الدين الإسلامي وغلية الحياة المادية.

التكفير: وبدأ الشباب المعذب يتساءل: هل يمكن أن يكون الحاكم الذي يقوم بهذا العمل مع رجاله من المسلمين؟ إن الكفار لا يفعلون مثل ذلك، فكيف يفعله المسلمون؟ وذلك مزلق خطر وللشباب عذره في ذلك، والكفر نوعان:

1- كفر أكبر: وهو الموجب للخلود في النار، وهو كفر التكذيب وكفر الإباء والاستكبار، وكفر الإعراض عن منهج الله وكفر الشك وكفر النفاق.

2- وكفر أصغر: وهو الموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود في النار ويتناول جميع المعاصي، فكما أن الطاعات تسمى إيمانًا فإن المعاصي تسمى كفرًا.

والتكفير مزلق خطر والنبي يقول في الحديث الذي رواه البخاري: "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما".

يقول الكاتب الفاضل في مقدمه كتابه [القلق الإنساني]: ترجع قصة هذا البحث إلى سؤال دار بخلدي هو: لم استهدفت الحضارة الحديثة إلغاء الدين؟ وهل الدين مرحلة حضارية أم حياة ضرورية؟ وكيف يعالج الإنسان هذا البحث؟ هل يقوم بالمقارنة بين الدين وبين شتى مجالات الفكر الإنساني؟ وهل لو سار الإنسان بمقتضى هذا المنهج يمكنه أن يصل

إلى شيء؟ وقد رأيت من الإنصاف لبحث هذا الموضوع أن يوضع في الاعتبار أمران:

1- قيمة العلم وضرورته في بناء الإنسان.

2- قيمة الدين وضرورته في بناء الشخصية الإنسانية.

ويجب ألا نضحي بأحدهما في سبيل الآخر.. وقد اتخذت في البحث حول الإنسان - وهل سعد بالاتجاه المادي أم مرض؟ وما مظاهر ذلك؟

من الممكن أن نقول إنه سعد في ظواهر التقدم في مجال الأرض، والفضاء، ومحاولة القضاء على الفقر والجهل والمرض - ولكنه مرض - ومن مظاهر ذلك شيوع القلق والسخط على الحياة والشعور بالغربة والكآبة وأزمة الأخلاق، وفوضى مذاهبها - ومعنى ذلك أن الحلم له قيمته وضرورته ولكنه ليس كافيًا لإسعاد الإنسان - والعناصر الأساسية في الإنسان هي الجسم وما وراء الجسم.

وفي الباب الأول يتناول كاتبنا مفهوم القلق فيقول: القلق ظاهرة تاريخية، ويظهر في كل جانب من جوانب الحياة المادية والروحية - والمدارس الفلسفية على اختلاف ألوانها ما هي إلا محاولات الإنسان للوصول إلى حل مناسب لعلامات الاستفهام العريضة ألبسته ثوب القلق في نفسه حب البحث والمعرفة.

وفي العصر الحديث حالة الإنسان تقلب وملل وقلق، والقلق هو أزمة الحضارة الحديثة، وتساءل العلماء ما أسباب هذه الأزمة؟ وعن أي شيء تبحث؟ وما الذي جعل من القلق خطرًا انتاب الإنسانية وجعلها غير واعية التي قيمها؟ وأعطانا أمثلة لما يظن أنه سبب القلق، ثم قال وللأزمة وجه خلقي عندما أصبحت الأخلاق بحثًا عقليًا وتعددت القيم العقلية حول القيم والأخلاق والإلزام، ويمكن أن ننظر إلى الأزمة على إنها أزمة العلم والتكنولوجيا.

ثم يعرض آراء الغربيين في أزمة القلق – فمنهم من يرى أن المشكلة مشكلة قيم، ومنهم من يرى أن المشكلة هي اتجاه التغيير للأشياء – ومنهم من يرى أن المشكلة هي الثقافة السطحية – ثم يقول: "إن الشيخ عبد الحليم محمود يرى أنه لا مخرج للإنسان إلا بالدين.

هناك قلق طبيعي ملازم للإنسان – فالإنسان بين حالين ملل وقلق – والإنسان قلق حتى في أحواله العادية، وهو قلق طبيعي يبعث على النشاط ويربط الإنسان بأمله وهو ليس مزعجًا، وهناك عدد من الناس يقضون معظم حياتهم في حالة متصلة من القلق الدائم – ولعوامل قد تستدعي شيئًا من القلق المحدود عند الأسوياء – وربما لم يكن مستندًا إلى حقيقة واقعة – وهذا هو القلق المرضي.

ثم عرض لعدد من تعريفات القلق واختار له تعريفًا هو: حالة من التوتر العامل الذي ينشأ من صراعات الدوافع بعضها من بعض، وفرق بين الخوف والقلق – فالخوف رد فعل لخطر معروف وواقعي ويكون

خارجيًا – والقلق رد فعل لخطر غامض غير معروف، ويكون ذاتيًا ومتوهمًا.

وآثار القلق تظهر في أشياء منها التوهم، ومنها ازدياد نشاط الجهاز الهضمي، ومنها الاستهانة بالحياة، ومنها الجمود الذهني.

ثم تحدث عن مفهوم القلق في الاتجاه الصوفي والوجودي وذكر له تعريف الغزالى الذي يقول: (حقيقة القلق سرعة الحركة لنيل المطلوب مع إسقاط الصبر وعند الهروي: تحريك الشوق بإسقاط الصبر.. كما تحدث عنه في الاتجاه الفلسفي فقال: انتهى علماء النفس إلى أن القلق شعور يلحق بكل إنسان، وقد يكون طبيعيًا وقد يكون مرضيًا وينتشر بالعدوى كعدوى أي انفعال ومصدره شعور الإنسان بالعجز والضعف أو الفقد).

إن قضايا القلق الفلسفي هي الله واليقين والإنسان والكون والفلسفة، إن أساس المشكلة كما وصفها بسكال هو عدم الاتزان بين الثنائية المادية والروحية وموقف الإنسان منها – والفلسفة الألمانية ترى أن ثمة تباعدا بينهما – وقد ظهر في العصر الحديث فلسفات جديدة كانت نتيجتها ظهور ثلاثة اتجاهات:

1– رغبة الفيلسوف في اكتشاف تركيبة الحقيقة بأن يميز بين مستويات الوجود المختلفة.

2– الرغبة الدينية في نقل الطبيعة الإلهية إلى مكان بعيد قدر الطاقة عن أية صلة بالمادة.

3- الرغبة الجدلية في تبرير الوثنية في وجه الدين. ونتيجة لذلك أصبحت الحياة قلقة نتيجة لصراع عاملين: مجموع الظروف المحيطة والحالة التركيبية الحالية للفرد.

والفلاسفة يعبرون عن الاتجاه المادي في الإنسان والصوفية يعربون عن الاتجاه الروحي في الإنسان، وهذا يؤكد إثبات الثنائية، أي أن الإنسان مادة وروح، ويؤكد الإجابة الدقيقة على السؤال، وهي أن الوجودية بقلقها الكئيب هي نتيجة لظروف العصر.

وأستطيع أن أؤكد أن القلق المعاصر أزمة عصرية، هي الأزمة التي تعني عدم الاتزان في التقدم الحضاري، لأن تقدم الحضارة انحصر في التقدم المادي، وتخلف عنه في الجانب الروحي والقلق يقوم على أساسين:

الأول: أن في الحضارة أساسًا فكريًا قويًا جبارًا، وهذا من ثمرة الكفاح الإنساني الطويل نحو سيطرته على الطبيعة.

الثاني: أن في الإنسان أزمة تسمى اضطرابًا قلقًا في شيء ما. فالمشكلة في الإنسان وحضارته من حيث الاهتمام بالجانب المادي – مع إلغاء الجانب الروحي، وتلك هي مشكلة الإنسان المعاصر. والقلق أزمة إنسانية أساسها عدم الاتزان الفكري بين ثنائية الحياة المادية والروحية. وتحدث الكاتب الفاضل عن القلق والشك والعلاقة بينهما وتعريفهما عند فلاسفة المسلمين وفلاسفة الغرب. وقال: إن موضوع الشرك يتعلق بالأفكار في مثل الإنسان والله والمعرفة – كما تحدث عن أسبابه عندهم وعن علاقة الشك بالقلق وعن الصفات العامة للشك والقلق. وفي الباب الثاني

تحدث عن مصادر الشك وتياراته وقال: "إن المصدر الأول للقلق هو محاولة إلغاء الدين في الفكر اليوتبي (المدينة الفاضلة)، وفي التيار الكهنوتي وفي التيار الهليني وفي التيار الماركسي.. وقال: "إن خطورة نظرية ماركس ترجع إلى أمرين:

الأول: أن الماركسية قدمت نظريتها كحل بديل للرأسمالية الأوروبية.

الثاني: إنها نظرية قابلة للتطبيق، الأمر الذي جعل منها فكرًا له خطره. وتعتبر الماركسية الصيغة النهائية للحركة الأوروبية في أسسها وتلك الأسس هي:

1- الاتجاه إلى الطبيعة بدلاً من الله.

2- الاعتقاد بأن الكائنات الحية تتبع في تطورها قانونًا حتميًا أو قوانين مادية، كما تشير نظرية دارون.

وموقف روسيا الشيوعية من الدين فيه عنف وفيه تزوير للحقائق، وكان هدفها دائمًا محو الدين من الحياة السوفيتية محوًا كاملاً.

وقد بدأ الشيوعيون حملتهم ضد الكنيسة بمنازعات دخلية علنية بين اتباع ماركس ورجال الكنيسة - ثم جاءت فترة الضغط المكشوف (اعتقال واضطهاد ونفي) الموجهة في الدرجة الأولي ضد الزعماء الدينيين، وكان معظم الدعاية ضد الدين يتألف في البدء من الاستخفاف بالدين عن طريق محاكاة الطقوس الكنسية وتقليدها تقليدًا رمزيًا.

ومن الطرق المفضلة لدى الشيوعيين مساواة الدين بالخرافات - ومن مظاهر التزوير في الدعاية السوفيتية ضد الدين قولهم: إن الدين قد

أصبح عديم الفائدة وأنه يموت تدريجيًا، وأنه يضعف وعي العمال ويخدم المستغلين دائمًا، وأنه ينافي العلم وأنه يعتبر حاجزًا بين الشعوب لفرضه البعض بين الطبقات وأن العلم قد أثبت أن الله لم يخلق الإنسان، بل إن الإنسان هو الذي خلق الله.

المصدر الثاني للقلق – محاولة إلغاء العلاقة بين الحياة المادية والحياة الروحية، وقد ظهر هذا الاتجاه أولاً كرد فعل عنيف على الفكر الكنسي وتطور حتى انتفض كل فكرة ميتافيزيقية – ونتيجة لهذا التطرف ظهر الاتجاه العقلي ثم دعوات تأليفية للربط بينهما وهذا المصدر له تياران:

1- تيار مادي.

2- تيار عقلي.

والاتجاه الفلسفي المادي أدى إلى القلق بحسب مسائله من حيث أن التقدم التقني زاد من قوى الغرائز الحيوانية – وأن الاتجاه الفلسفي شككنا في الدين، أعرق جانب في الكون الأساسي للحضارة وعنصر الأمان فيها.

والتيار العقلي ينطوي على تيارين: التيار العقلي العلمي والتيار العقلي الفلسفي، وقد أفادت التيارات العقلية في مجال الفكر الرد بعنف على المادية، وشحن الجو الفكري بجدل عنيف حول مفهوم الحقيقة – وفي مجال القيم تشكك العقل في المعتقدات الدينية وانتصر العقل وانخفضت القيم الخلقية – والله ممكن ولا ممكن ولا علاقة له بالعالم، وبعيد عن مجال البحث الإنساني.

والمصدر الثالث للقلق: شعور الإنسان بأنه مسئول عن تنظيم الوجود باسم النزعة الإنسانية، على الرغم من أن الفكر الحديث انتهى إلى ثنائية متعادية – غير أنهما اتفقا على الدعوة باسم النزعة الإنسانية. وأهم خواص النزعة الإنسانية:

– هي أنها تبدأ فتؤكد أن معيار التقويم هو الإنسان – والإشادة بالعقل ورد المعرفة إليه وتمجيد الطبيعة وأداء نوع من العبادة لها (عبادة الرهبة والخوف من جبروتها).

– التقدم إنما يتم بالإنسان نفسه وقواه الخاصة.

– النزعة الحسية الجمالية التي تميل إلى الرجوع إلى العاطفة وإدراك الوجود في بعض أنحائه.

وقد اتخذت مكافحة الاتجاه المادي تيارين:

1– مكافحة ضد سيطرة العالم.

2– مكافحة من أجل إنقاذ استغلال حياة الروح.

ولهيجل محاولات في الربط بين الثنائية الذي استخلص الديالكتيك من مفهومه للحقيقة النهائية – والتيار الثاني تيار المدرسة الوضعية والتيار الثالث تيار المدرسة الاجتماعية والنفسية التي ترى أن الدين وضع إنساني بحت وضع لغاية نجا إليها الأنبياء، وهي إصلاح البشرية وإقامة العمران، والقول بإنسانية الدين أدى إلى شيوع خطأين:

الأول: الإنسان أولاً وأخيرًا.

الثاني: لا علاقة بينه وبين الله.

المصدر الرابع للقلق: شعور الإنسان بضعفه – ولهذا المصدر عدة تيارات: القلق المعرفي والقلق الأخلاقي والفلسفة التي تصوغ ضعف الإنسان وغربته – وقد أدت هذه المصادر وتياراته إلى الشعور بالرغبة – والحركة الأدبية تعبير عن العزلة وعن الانفصال بين المجالين الموضوعي والدفاعي والذاتي.

ومن مظاهر القلق والغربة فوضى الآراء والمعتقدات، وفوضى القيم الأخلاقية.

وفي الباب الثالث تحدث الكاتب الفاضل عن علاج الدين للقلق وقال إن العلاج يطلق على ثلاثة طرق كما أطلق علماء مناهج الصحة الجسمية طريق علاجي وطريق وقائي وطريق إنشائي. والسعادة الحقة تكون في التوازن الانفعالى والهدوء العاطفي. والاتزان الفكري هو ما يهدف إليه من وراء كلمة علاج – وهو ما يعرف بالمنهج الإنشائي الذي يستهدف زيادة كفاية الفرد وتطمين شعوره بالقدرة والسعادة باتباع الطرائق المؤدية إلى تقوية الإرادة أو الخيال أو الذاكرة أو الشخصية.

ثم تحدث الكاتب عن ضرورة الدين من خلال التيارات الفكرية:

أولاً: من خلال التكوين الثقافي، لأن الدين ينطوي على جانبين – جانب عقدي وجانب عملي – وفضلاً عن ذلك فيه معنى الرسالة والرسول والوحي والعلاقة بالله.

ثانيًا: ضرورة الدين من خلال المشاكل التي تثار حوله مثل الدين والفلسفة والدين والعلم والدين والتطور والدين والفن والدين والشيوعية والدين والوجودية والدين والدولة.

والدين شيء أصيل جوهري في حياتنا يوزن بميزان الضرورة في حياة الإنسان والشواهد على ضرورة الدين من:

ناحية المنهج: فالمحور والمركز الثابت في حياة الإنسان هو الدين – به تقاس المذاهب والنظم – ويكتب لها بوحي من الدين الاستقرار أوالاضطراب.

خلال المواقف حول الدين: أن المجتمع الإسلامي كان زاخرًا بألوان شتى من الثقافات المختلفة وفنون العلم وماج بطرائق من المفكرين مؤمنين موحدين وملحدين مبدلين وشاكين إلى الكثيرين، ممن ينزعون نزعات مختلفة.

ترى هل على الدين خطورة من مثل تلك القضايا لقد كان الدين قويًا، وكذلك كانت الدولة قوية ورجالها كذلك، وكانت الحضارة مكتملة زاهية.

من خلال الفلسفة المادية: إذ إنها في صراعها مع الدين أضافت إلى نفسها قصورًا وفجوة، لأنها أقصت التقدم الروحي حتي أصبح للإنسان أكثر من مفهوم، الأمر الذي جعل هذه الحضارة على حافة الهاوية كما يري المؤرخون لها، فالقلق المعاصر صحوة تشير إلى أهمية الدين ونظرة نقد

بصيرة إلى تحديد مفهوم التكنولوجيا بالنسبة إلى تحديد مفهوم الإنسان وإن في الإنسان جانبًا لا يغفل هو الذي يلجؤه إلى الدين.

من خلال التكفير الماركسي: جاء ماركس ليعالج القلق في مجتمع به قلق، ولكن علاجه زاد من حدة القلق، حينما جعل الدين عضوًا في تلك المحكمة القاتلة للجنس البشري، وعندما رأي الدين يقرر العدل وله وسائله الشريفة أنكره وإنكاره الدين معناه استمرار ظاهرة القلق، فضلاً عن نتائج سوف تظهر من تطبيق نظريته فواصل طبقية من نوع جديد هي الحقد والبغضاء، وقد وقعت الماركسية في خطأ عظيم حيث ربطت بين الدين ورجال الكنيسة ربطًا لا يقبل الموازنة أو المقارنة وحملت الدين كل تصرفات رجال الكنيسة ربطا لا يقبل الموازنة أو المقارنة في العصور الوسطي، مع أنهم لم يخلطوا بين النظرية والتطويق في الماركسية فقالوا اللينينية والصينية.. إلخ. فلو فعلوا ذلك مع الدين لعرفوا قيمة العلم الديني.

إن دين الله الذي رفع من شأن الإنسان، وراعى قيمه، هو بعيد عن هجاء ماركس – والإسلام والأديان الأخرى لا يمكن إطلاقًا أن تتفق والجبرية الاقتصادية أو التفسير المادي للتاريخ اللذين يعتبران أساسيين في المذهب الماركسي، فالإنسان في جوهره موجود روحي ذو صلة بالله ومن ثم كان كائنًا أخلاقيًا حرًا والله هو المتصرف في الحركات التاريخية.

من خلال الدور التركيبي بين الفلسفات المتعادية: فارتباط الفلسفة بقضايا الدين يؤكد ضرورة الدين مع بيان وظيفته، كذلك محاولات

المدرسة الوضعية نحو تأسيس ديانة جديدة أساسها الإنسان وحده تعطي أهمية للدين وأنه أمل المستقبل.

وهناك تلازم تاريخي بين الإنسان والدين – فقد بدأت الدراسة النقدية للدين وبدت تساؤلات عن أصله ومنشئته وشاء لهذه الدراسات أن تصل إلى النتيجة التي هي التلازم التاريخي بين الإنسان والدين، فالرأي الأول: هو أن الأساطير هي أصل الدين بين المنهج، والرأي الثاني: أن عبادة الأسلاف هي أصل الاعتقاد بالأرباب، والرأي الثالث: إن السحر هو أصل العبادة وأصل الشعائر الدينية، والرأي الرابع: يعلل العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعية والأحياء فلا غنى له عن سند يبتدعه ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه، والرأي الخامس: رأي فرويد الذي يعدد ديانات الإنسان جميعًا في عداد الأوهام الجماعية، والرأي السادس: رأي برجسون الذي يرجع العقيدة إلى مصدرين، إحداهما اجتماعي لفائدة المجتمع أو فائدة النوع كله، والآخر فردي يمتاز به أحد من ذوي البصيرة والعبقرية الموهوبة.

وذهب كثير من العلماء إلى أن فكرة الله أو الدين إنما هي فكرة مضطربة وجدت مع الإنسان وتوصل إلى النتائج الآتية: الدين فطرة في الإنسان والوحدانية أقرب إلى الفطرة، وفي نفس الوقت هي الدور الحضاري لكل عقيدة والأديان الكتابية هي التي بلغت بالتوحيد الغاية وامتزاج عقيدة الروح بكل دينية، وإذا كانت الإنسانية في جميع أطوارها

تخلت عن الاعتقاد، فمعنى ذلك أن في الطبع الإنساني جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام – وهذه الأبحاث تهدينا إلى ما يقرره القرآن تاريخيًا للحياة الدينية في الإنسان، وهو أن الدين {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ} "الروم:30، 31".

وهناك تلازم وجودي بين الإنسان والدين لإحقاق التوازن مع ملاحظة أن التقدم العلمي الذي يساعد على اهتمام الإنسان بالجانب المادي أدى إلى أن الاتجاه الفكري أخفق تمامًا في تحقيق طمأنينة الإنسان فشعر الإنسان بالغربة والعزلة، وأعرب بذلك عن جاجته الماسة إلى تأمل الكون تأملاً روحيًا، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالدين، لأنه هو الأساس الإلهي للعلاقة بين الثنائية، وأساس التوازن بين الوجود المادي والوجود الروحي، وهذا التوازن هو الهدف الحقيقي من الرسالة الإلهية وإرسال المرسل، وإذا كانت حياة الإنسان الحقيقية متصلة بالله تعالى وعجز عن إدراكها، فالدين هو الذي كشفها له عن طريق الوحي الإلهي.

وهناك ثلاثة أسس يقوم عليها الدين الأساسي:

الأول وجود الله تعالى، وقد جرت سنة الله على أن يكون الدين رسالة سماوية إلهية إلى الإنسان على يد رسوله، فمن هنا قلنا إن الأصول الدينية ثلاثة على أساس أن الدين عبادة والعبادة تقضي معبودًا (الله)، وعلاقة

رسول وعابد (الإنسان)، فالدين متصل بالله تتصل به المخلوقات ولا انفصال بين الدين وبين الإنسان والإله، فقضية وجود الله وتنزيهه كمعمل عقلي بحت ليس من اختصاص العقل، ورأينا أن من أهم مصادر القلق محاولات العقل إثبات المجال الروحي أو نفيه.

الأساس الثاني: الرسول ومن أهم مقوماته الوحي والمعجزة فهما من الأساسيات الضرورية للرسول وهي ليست صفات شخصية بقدر ما هي تعبير عن جانب آخر غير العقل منحها الله إياه.

والوحي عمل غير عقلي لدوام العلاقة بين الله والناس على نهج روحي ولتنظيم علاقة ثنائية الإنسان بين روحه وجسده وبين مقاصد الروح ومطالب الجسد وعلاقة الإنسان بالله.

والمعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد مدعي النبوة، وكأن الله يقول: (صدق عبدي في كل ما يبلغ عني)، وهي لذلك تلزم الناس بتلك التعاليم وإعلامهم أنها من الله.

الأساس الثالث الإنسان: والإنسان حيوان متدين، وقد قامت أبحاث فجر النهضة الأوروبية لتقصي ظواهر تلك الصفة وأسست في سبيل ذلك علومًا لدراسة هذا الفرض مثل: علم الأديان المقارن وعلم الاجتماع الديني وعلم تاريخ الأديان وعلم النفس الديني، وكان الغرض من هذه المحاولات التقصي لإثبات خرافة الدين وتبرير موقف أوروبا العلمي وإحلال الإلحاد العلمي محل الإيمان الديني، ومع ذلك فقد انتهت أبحاثهم إلى أن الدين حقيقة إلهية لحقيقة إنسانية وليس تصورًا إنسانيًا، وأن هناك شيئًا ماديًا

وشيئًا وراء المادة، فالثنائية لا وجود لها إلا بالجمع والفصل بينهما خروج عن الشكل الطبيعي للإنسان، ففي الثنائية فصل وجمع ولا يحكم الفصل والجمع بينهما سوى قوة أخري لها قدرة الإحاطة بخصائص تلك الثنائية، وهذا من أدق ما أجاب به القرآن على السائلين عن الروح {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا} "الإسراء: 85".

الإنسان كائن قادر على السلوك العقلي والحكم على الأشياء والتقرير الإرادي الاختيار الأخلاقي، والقرآن يدعم هذه الحقيقة الروحية بتقريره أن الله قد خلق الإنسان ليكون خليفة له في الأرض، ولقد أقيم الإنسان على الأرض ليسيطر على سائر المخلوقات التي جعلها الله تعالى خاضعة لإرادته وقوله تعالي: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} "البقرة: 30". فيها إشارة تقرير لمهمة الإنسان في الأرض، وقد عمرها وأغرم البحث فيها فكشفها واستبان له بطنها، وتكشف الظلام عن فجر المعرفة الذي استوضح فيه الإنسان آفاقها، وهو مازال يرقى مراقيها يومًا بعد يوم، مما يؤكد لنا أن الإنسان نجح في مهمته وهو في نجاحه يؤكد على أنه مخلوق لله مكون من قبله بما يكفل له عوامل النجاح في محاولات الوجود.

والعلاقة بين العالمين تقوم على ربط الإنسان بالله تعالى وأن على الإنسان واجب العبادة والعناية بالشئون الروحية – وتكريم الإنسان على الطبيعة وعلى سائر الوجود وأن الطبيعة مسخرة له وعالم الغيب من أهم

خصائص الدين الإسلامي، فإنه لم يكتف بالإشارة إليه فقط، بل شرح ووصف على خلاف الأديان السماوية الأخرى.

ويعني الإسلام من عالم الشهادة توجيه الإنسان نحو العناية بشئون نفسه وشئون العمران في الأرض مع الارتباط بالأخلاق، ويعني الإسلام بتنظيم العلاقة بينهما.

والتكفير يترتب عليه عدم حل الزوجة ووجوب المحاكمة لتنفيذ حد الردة، وإذا مات لا يجري عليه أحكام المسلمين.

رحمة للعالمين: لقد بعث الله نبيه، رحمة للعالمين، ويسرًا للناس أجمعين وبعثته كانت رأفة ورحمة بالناس، وكان لذلك يترك بعض الأعمال خشية أن يشق على أمته، ومن ذلك أنه لم يخرج للناس ليصلي التراويح خشية أن تفرض على الأمة، وقال لمعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري حين بعثها إلى اليمن: (يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا).

والإنسان له في ذاته أن يأخذ نفسه بالأشد من المشروع، ولكن ليس له أن يلزم الناس بهذا.

والضلال نشأ من أصلين:

1- اتخاذ دين لم يشرعه الله.

2- تحريم ما لم يحرمه الله.

والإسلام لم يسن الحرب الدائرة بين طائفتين من المسلمين جهادًا بل قتالاً، وهو مذموم من كلتى الطائفتين، وقتال الفئة الباغية قتال لاجهاد مع أنه محبوب.

مظاهر الغلو:

وفي قليل من الجماعات المتطرفة ظهرت مظاهر للغلو، مثل تحريم التعليم في المدارس وتحريم الصلاة في المساجد، وإيقاف صلاة الجمعة واعتزال المجتمعات وتحريم الوظائف الحكومية، وهذه المظاهر تحتاج إلى أن يحس هؤلاء الشباب بالأمن في مجتمعهم ثم بتنظيم لقاءات بينهم وبين من يثقون به من العلماء لمناقشة هذه الأفكار، على أن يطمئن هؤلاء الشباب إلى أنهم يعيشون بين مجتمع يحبهم ويخاف عليهم، ويحب الإسلام ويتمسك به.

حينئذ تضيق الهوة بينهم وبين الحطام ويبدأ السير في الطريق السليم، ويساعد على ذلك الخطوات التي تتخذ في تنفيذ أحكام الإسلام على الجميع، وجعل وسائل الإعلام تسير في الطريق السليم، وجعل التعليم سائر على المنهج الإسلامي وإلغاء قوانين الطوارئ، وتحقيق الغذاء للمجتمع وسداد الديون.

حينئذ يمكن للمجتمع الإسلامي أن يسير في الطريق السليم الذي يستطيع به أن يؤدي وظيفته في هذه الحياة طبقًا لمنهج الله – سبحانه وتعالى – الذي اختار هذه الأمة لتكون شهيدة على الناس ويكون الرسول شهيدًا عليها، وبذلك يظهر حبنا لله وشريعته فيحبنا الله ويغفر لنا {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} "آل عمران: 31".

فليس للروح حق السيادة على البدن وليس للبدن حق السيادة على الروح، إذا إن البعث وشئون القيامة لهما معًا، فدعوة التوازن بين المادي والروحي هي من أهم ما يميز الإسلام عن غيره، لذلك نهى عن الإخلاد إلى الأرض {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } "الأعراف:175-178". كذلك عارض الموقف الروحي البحت {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ} "الحديد:27". فالحقيقة الدينية قديمة قدم الإنسان.

ويؤكد التلازم بين الإنسان والدين على:

- التخفيف من العزلة والغربة الروحية التي سيطرت على هذا العالم على أساس أن الدين يقوم على الإيمان بالله وعالم الغيب، ورسمه للطريق إليه.
- إحياء دلالة الدنيا والآخرة، فهذه الدلالة الثنائية تخفف من سيطرة القلق على أساس أن الموت ليس فناء، وإنما هو وجود مرتبط بالأبدية وبالله تعالي، فالإيمان بالله يؤكد هذا التلازم الوجودي بين الإنسان والدين وعلى التخفيف من الغربة والعزلة الروحية من حيث أن الدين مرتبط بالإيمان بالله تعالى – ويستتبع العزلة الحنين إلى الله – والعامل الإلهي هو وحده الذي يستطيع أن يقتصر على العزلة، وأن يجعل الإنسان مدركًا للشعور بالألفة، والصلة متوخيًا غاية موجودة، والله سبحانه وتعالى أساسًا

هو الذي يمكن أن نؤمن به إيمانًا مطلقًا وهو الذي يمكن أن يستسلم له الإنسان استسلامًا كاملاً ومن مصادر استعباد الإنسان وذلته حرصه على المكانة الاجتماعية، من هنا نستطيع أن نفهم تقسيم القرآن للنفوس إلى:

- نفس مطمئنة {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} "الفجر:27".
- ونفس ولوامة {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} "القيامة:2"
- ونفس أمارة{إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} "يوسف:53".

فالنفس المطمئنة مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبيه وبالإنابة إليه ولا طمأنينة حقيقية إلا بالله وبذكره {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} "الرعد:28-29".

الإيمان باليوم الآخر:

عصر التقنية موجه بأكمله نحو المستقبل ولا يسمح للروح أي فراغ لتؤكد نفسها بوصفها الخالقة الحرة للمستقبل. وللسرعة القائمة على الآلية المتزايدة للحياة أثر على الروح الإنسانية، وبتأثير السرعة الفائقة انحلت "الأنا" الإنسانية إلى أجزاء ضئيلة جدًا وسبيل الروح إلى تحقيق شخصيتها يكون بالتأمل، والتأمل هو مركز الإيمان {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الألباب} "آل عمران:190".

تصفية حسابنا العقلي:

خمس ملاحظات يجب أبداؤها، للتوازن بين الدين والحياة: ملاحظة عامة حول الخلاف والاختلاف: الاختلاف موجود في كل شيء حتى بين الإنسان ونفسه. فمادام هناك فرق بين الإله والبشر فسيظل تبعًا لذلك اختلافًا عامًا بين ما هو توجيه آلهي وفكر بشري، إذ لولا الاختلاف لما وجد التفاعل، والاختلاف ليس سر الأزمة، ولكن الخلاف حول الاختلاف بين الدين والفكر هو الذي يشكل الأزمة.. ومظاهر هذا الخلاف يظهر في موقفين:

1- موقف من يوفق بين الدين والفكر.

2- موقف من يخالف بين الفكر والدين إلى حد التناقض.

الملاحظة الأولي: حول الموقف العقلي واللاعقلي.

وهناك فارق هام بين موقفين للفلاسفة من الدين:

- موقف الذين يقبلون الدين في إحدى صورة القائمة باعتباره أمرًا أساسيًا في حياة الإنسان.

- وموقف الذين لا يقبلون إلا الديانات المنظمة على أسس فلسفية.

الملاحظة الثانية: حول الدين والتكنولوجيا:

في عالمنا المعاصر مظاهر متناقضة نحو الدين والتكنولوجيا، فحضارة التكنولوجيا نبذت الدين، ومرض الإنسان روحيًا لذلك، وظهرت عوارض هذا المرض في صورة: - تعدد المذاهب حول المعيار الأخلاقي.

- فوضى الآراء حول القيم.
- عدم تحديد المفاهيم مما أدى إلى الخلط بين الحرية والسياسية والحرية الأخلاقية.
- صرخات الإلحاد وفصم العلاقة بين المادة والروح.

وهناك حضارة مازالت تتمتع بالجانب الروحي متخلفة عن المجال التقني، تبغي التحلل من دينها وليس لها من حجة في تخلفها سوى أنها متمسكة بدينها مثل تركيا، مع أن هذا هو نتيجة الإهمال التقني وليس سببه الدين.

الملاحظة الثالثة: حول الإنسان والحقيقة الدينية:

فالحقيقة الدينية ترتكز على ثلاثة مبادئ: الوحدة والثبات والانسجام ومصدرها الله تعالى، وهو رمز الوحدة والتوحيد وطريقها الرسول والرسالات الحقيقة أكدت نفسها بما سبقها من حقائق الوحي المنزل فالكل يستند إلى الوحي الإلهي، ومقرها الإنسان، فالحقيقة الدينية واحدة معروفة ولكن الإنسان هو الذي يتصارع على الرغم من علمه بها {واتْلُ عَليهِم نَبَأَ الذي آتيناهُ آياتِنا فانسلخَ مِنْها فأتبعَه الشَّيطان فكانَ مِنْ الغَاوينَ} "الأعراف:175". ولذلك نرى التعارض شديدًا بين الرسول وبين أهل الكتاب، ومرجع ذلك إلى التمييز الاجتماعي الذي يكون عليه الإنسان، والدعوة الجديدة لا تحرص على المراكز الاجتماعية لأصحابها، ولكن تحرص على صفاء العقيدة.

ثم إن الفكر الديني الشخصي، يمثل نفاقًا اجتماعيًا وهو الذي يمثل الفهم الشخصي في الدين.

الملاحظة الرابعة: حول الدين والعقل والمناهج العقلية:

علينا أن نلتمس معيار الحقيقة في العقل والوجدان معًا، وبذلك يظل القلب المصدر الأعلى للقيمة الحقيقة لا كما يتصور معظم الفلاسفة الذين قالوا إن الذات العارفة لا تستطيع أن تدرك الوجود إلا عن طريق العقل ثم إن المعرفة تنطوي على جانبين: جانب باطني وجانب متعال، ولابد أن نميز بين نوعين من المعرفة.

– المعرفة العقلية الموضوعية التي لا تتجاوز حدود العقل.

– المعرفة الباطنية في الوجود التي يستطيع العقل أن يدرك اللامعقول بعد أن يعلو على العلم وهذه المعرفة هي المرادفة للاتصال الروحي والمشاركة.

الملاحظة الخامسة: حول التدين والضعف والإلحاد والقوة:

إن حقيقة الإنسان ضعف وعجز وجهل وإن من معاني هذا الشعور ما يدفع الإنسان إلى الإيمان بالله تعالى، وتنظيم العلاقة بينه وبين الله، وترتكز هاتان الحقيقتان على أساسين: – أساس علمي يقول أن الكون مرتبط بقوانين ودور الإنسان هو دور المكتشف، فالإنسان محكوم بهذه القوانين. – أساس ديني يقول: "ولن تجد لسنة الله تبديلا". وحاجتنا اليوم إلى كلمة سواء وللكلمة السواء أسس ثلاثة:

1- العقيدة وأساسها الوحدانية: يقول الله تعالى:{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} "الإخلاص:1".

2- الأخلاق وأساسها الرحمة: يقول الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} "الأنبياء:107".

3- التشريع وأساسه العدل: يقول الله تعالى: { وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا} "المائدة:8".

والإسلام بتقديمه لكلمة سواء، يلغي التعصب، والكلمة السواء، تجعله عالميًا.

وكلمة سواء الإسلام ليس فيها ما يربطها بالجنسية، ومن هنا كان أصدق تعبير عن الدين وكانت القضية قضية (إن الدين عند الله الإسلام) قضية لا شك فيها وكانت القضية المترتبة على هذا (ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه) لا شك فيها.

خاتمة هذا الموضوع: ترتبط بمشكلة إنسانية هي القلق الإنساني كأزمة حضارية معاصرة، لذلك رأينا أن نفصل بيننا وبين أنواع أخرى من القلق هي:

1- القلق الطبيعى.

2- القلق النفسى.

3- القلق الصوفى.

القلق الطبيعي: يعتبر دافعًا للإنسان ومرافقًا له في كل نهاية، لأن الإنسان بلا قلق يعتبر فاقدًا للدوافع، بليد الإحساس، جامد المشاعر.

والقلق النفسي: دراسة لأحوال مرضية نتيجة مشاكل وظروف خاصة.
والقلق الصوفي: قريب من معنى الخوف يتخذ منه الصوفية دافعًا للترقي في مراقبهم ومدارجهم، وهي نتيجة واقعية وشوق إلى حاجات عليا وخوف من عدم الوصول إليها. وهذا البحث خطوة نحو التشخيص والعلاج.

ثم إن أزمة القلق المعاصرة هي نتيجة للاتصال الذي حدث بين العلم والدين والنظام الاجتماعي في أوروبا الإقطاعية، وسوء تصرف الكهنة هو الذي ألحق بالدين شبهة أن الدين هو سبب التأخر، ومحاولة عقلنة الدين أو إخضاعة للمناهج العلمية لتؤدي إلى زعزعة قواعده وقد فشلت في وضع دين جديد باسم الإنسانية، وشيوع الإلحاد سببه محاربة الكنيسة للتقدم العلمي، والتأثير على الحقيقة الدينية هو تأثير العلاقة الروحية بين الإنسان وبين الله.

وهذا البحث هو دعوة لتوازن بين ضرورة العلم وضرورة الدين، فالجانب المادي يقوم به العلم، والجانب الروحي يقوم به الدين، والنزاع بين العلم والدين مفتعل.

والتمييز بين الدين ورجال الدين والفكر الديني مهم، والبحث بالنسبة لأزمة القلق المعاصرة خطوة إيجابية مشاركة للفكر نحو نظرية جديدة حول الدين.

والدين علاقة دائمة بين الله وبين الناس، والعبادة تقتضي عابدًا ومعبودًا، والدين الحقيقي هو الذي لا ينتسب لدولة ولا لطبقة ولا لمكان،

ومن هنا كان الإسلام هو دين الحاضر والمستقبل {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا} "آل عمران:193".

التعليق: فضيلة الأستاذ الدكتور محمد الفيومي من علماء الأزهر الشبان، الذين يمتازون بالحيوية والنشاط وحب العلم والغيرة على الإسلام وهو يرتاد آفاقًا جديدة في الفلسفة وعلم النفس يدرسها دراسة فاحصة ويناقشها مناقشة دقيقة ليخرج من هذا كله إلى أن الإسلام هو الدين، الذي فيه خلاص البشرية من مشاكلها وكتابه (القلق الإنساني) يقع في أكثر من خمسمائة صفحة عالج فيه موضوعًا من أهم موضوعات العصر إثارة (القلق الإنساني – مصادره – تياراته وعلاج الدين له)، بعد أن فشلت كل الفلسفات في علاجه، بل إن هذه الفلسفات كانت سببًا في زيادة هذا النوع من الأمراض الخطيرة التي حطمت الأفراد، والجماعات في المجتمعات الحديثة ويتميز أسلوب كاتبنا بالسلاسة والسيولة وحسن العرض.

ويلاحظ أن الكاتب الفاضل قد بذل مجهودًا كبيرًا في عرض المذاهب المختلفة ومناقشتها من جوانبها المختلفة، ومع ذلك فإن القارئ المهتم بهذه الدراسات يجد صعوبة في متابعة هذه الآراء والتعليق عليها. ومن العناصر الهامة في هذا الكتاب علاج القلق، وقد أشار إلى هذا العنصر إشارة عابرة وهو أن العلاج يطلق على ثلاثة طرق – كما أطلق علماء مناهج الصحة الجسيمة (طريق علاجي وطريق وقائي، وطريق إنشائي).

وكنت أرجوا لو اقتصد في عرض المذاهب الفلسفية المختلفة وأطال في بيان علاج الإسلام لقلق المرضى الذي انتشر وعقدت المؤتمرات المختلفة لمحاولة علاجه.

يقول الدكتور ريز رئيس جمعية الصحة العقلية في المؤتمر الثاني عشر للصحة العقلية الذي عقد في برشلونة في سبتمبر عام 1959 (إن أهم ما يمتاز به القرن العشرون أنه تسوده عوامل الصراع والتطاحن والحرب النفسية، لدرجة جعلت كثيرًا من سكان العالم في بقاع الأرض المختلفة يعيشون على حافة الهاوية – كل هذا دعا الباحثين في علم النفس إلى أن يطلقوا على هذا العصر (عصر القلق).

الناحية الإنشائية في الإسلام:

الإسلام غني بالناحية الإنشائية للطفل حتي يخرج إلى الحياة قوى الجسم سليم النفس والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهو أدرى بما يصح جسمه وما يصح نفسه وعنايته بالطفل تبدأ من قبل ولادته بتهيئة الجو الملائم الذي يربى فيه، بحيث يخرج إلى الحياة مسلمًا كاملاً قائمًا بواجبة نحو ربه ونحو أسرته ونحو مجتمعه، وبذلك يستشعر الرضا والسعادة فاشترط اختيار الوالدين على أساس الدين، وجعل البيت قائمًا على أساس المودة والرحمة وحدد واجبات الوالدين في معاملة الأبناء من ناحية الرضاعة والعناية بالنواحي الجسمية والنفسية والعقلية، فالبيت الأمثل صلة روحية ورحمة ومودة بين ساكنيه فيه تنبعث عواطف المودة والتضحية والتعاون، وخير العواطف أمسها بحياة المجتمع، وعواطف

الصداقة والاحترام، احترام الطفل لأبويه الذي هو أساس احترامه لنفسه، وكل سلطة زمنية أو روحية فيما بعد فيه يتعلم الطفل معنى الضبط وقيمته طوعًا من والديه فقد عرف أن فيه خيره وسعادته في هذا البيت يخرج الطفل إلى الحياة مزودًا بالثقة من العواطف الحميمة تكون في يده سلاحًا للكفاح كما تكون أمانا من العلة النفسية في مستقبل حياته.

والطفل الذي ينشأ في البيت المسلم ينشأ على صلة قوية بالله تعالى، فيحس بأنه متمسك بالعروة الوثقي التي لا انفصام لها فيكون بذلك في مأمن من الأمراض النفسية، لأن الإيمان بالله خالق الإنسان ومدبر الكون يجعل الإنسان يحس بأن له سندًا قويًا في هذه الحياة، ولذلك فإن الاعتقاد في وجود الله أهم وسائل الوقاية من الأمراض النفسية والعلاج من مرض الوحدة.

والمجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه الطفل – مجتمع يقوم على المودة والثقة والتعاون والتعاطف – فالمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه – والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا – والمؤمن يقيم العدالة في الأرض وهو في رعاية الله تعالى وفي الآخرة مأواه الجنة – وهو يحس بهذه المقاييس الجديدة الخاصة بالمجتمع الإسلامي الذي أراده الله تعالى والمؤمن متصل بالقرآن الذي أنزله الله تعالى ليكون شفاء ورحمة للمؤمنين {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} "الإسراء:82"، ذلك لأن الإيمان نور يشرق في القلب فتشرف به النفس، فيرى الإنسان الطريق أمامه واضحًا فلا يصيبه اضطراب ولا قلق، وعقيدة الإسلام حين

تتغلغل في النفس تدفعها إلى السلوك الإيجابي السليم الذي يجعل المؤمن ثابتًا {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} "إبراهيم:27". والإسلام يهيئ نفس المسلم لتحمل صعوبات الحياة {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ} "البقرة:155".

وبمقدار صبر الإنسان على ما يلقي بمقدار ثواب الله تعالى له: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} "الزمر:10". والإنسان هذه الحياة يخاف من الفقر والله سبحانه وتعالى يطمئنه بأن الرزق مكفول له {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} "الذاريات:22". فالمسلم يتطلع إلى السماء وإلى الله الخلق، وليس معنى هذا إهمال الأرض، فالإنسان مكلف بعمارتها، ولكن المقصود ألا يعلق نفسه بها وألا يغفل عن الله في عمارتها، وبذلك يعيش قلبه موصولاً بالسماء وقدماه ثابتتان في الأرض، وعلى الإنسان ألا يتطلع إلى ما في يد غيره أو إلى أن يطلب أشياء فوق قدراته المادية والجسمية واستعداداته الفطرية، وبخاصة وأن ما في يد غيره قد يكون مقصودًا به الفتنة وقد عافاه الله منها {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} "طه:131".

والإنسان قد يخاف من المرض والإسلام يطلب من المسلم أن يلتمس العلاج، ويرشده إلى أن ما يصيب المؤمن له ثواب حتى الشوكة يشاكها والمسلم بكل خير على كل حال، إن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له وليس ذلك إلا للمؤمن.

والإنسان قد يخاف من ضغوط الحياة لأسباب، والرسول – عليه السلام – يبين للمسلم أن عليه أن يكون متصلاً بالله تعالى ولا يهمه الناس، لأنهم لا يملكون له نفعًا ولا ضرًا – فلو اجتمعوا على أن ينفعوه – لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له – ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

والإسلام يربي أبناءه على البعد عن الحقد والكراهية والحسد، وقد أثبت العلم الحديث أن لهذا كله تأثير كبيرًا على جسم الإنسان وعلى نفسه، فهو يرفع ضغط الدم ويحدث جفاف واضطرابات خطيرة في الغدد الصماء وعسرا دائمًا في الهضم والامتصاص الغذائي وأرقًا وشرودًا والنفور والاشمئزاز يؤديان إلى أمراض نفسية كالحساسية – والحساسية ذاتها نوع من أنواع النفور – نفور الجسم من مواد غريبة عليه. والإسلام يربي أبناءه على الأمل والبعد عن اليأس – ذلك لأن البأس والإيمان لا يجتمعان في قلب مؤمن والقرآن الكريم يقول: {لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} "يوسف:87"، ذلك لأن اليأس يؤدي إلى انقباض الكورتزون في الدم.. والغضب يؤدي إلى ارتفاع الأدرالين والتروكسين في الدم بنسبة كبيرة – وإذا استسلم الإنسان لدوافع الغضب واليأس فإنه يصبح فريسة سهلة لقرحة المعدة والسكر وتقلص القولون وأمراض الغدد الدرقية والذبحة – وهي أمراض لا علاج لها إلا المحبة والتفاؤل والتسامح، لأنها في حقيقتها أمراض نفسية.

ومقاومة الأجسام للأمراض تكون على أعلى مستوى من الكفاءة إذا كان هناك انسجام بين كل الخلايا والغدد والأعصاب، وهي حالة ترتد في النهاية إلى صورة الائتلاف الكامل بين النفس والجسد.

ومن هنا فإننا نجد أن المؤمنين الصادقين الذين سلمت نفوسهم وصفت قلوبهم بأخص الإيمان لم يتعرضوا مطلقًا للأمراض النفسية التي تجر وراءها الأمراض البدنية، ذلك لأن هذه الأمراض بنوعيها لا تظهر إلا مع ضعف الإيمان أو مع فقده حين تتسرب الوساوس إلى النفس فتنشأ العقد، وتكثر الحاجة إلى الأدوية المنظمة والمهدئة والمخدرة التي لا يعتدل بها ما اعوج من النفوس، وسيظل الصراع قائمًا في زوايا النفس التي ضعف إيمانها – ومن هنا يقول الدكتور بريل: (إن المرء المتدين لا يعاني قط مرضًا نفسيًا).

وينصح علماء النفس بأن يكون للإنسان مثل أعلى في الحياة أو مبادئ أو فلسفة دينية أو خلقية تكون عونًا له على البت السريع، فيما يعرض له من مواقف حافلة بالصراع، وتكون سلاحًا يستمد منه في شتى ظروف الحياة حوافز إلى العمل قوية عالية تتلاشى دونها الثروات الكاذبة.

العلاج النفسي في الإسلام:

يبدأ العلاج بالنسبة للمريض عن طريق وصله بالله تعالى، فيبدأ في الشعور بالراحة والطمأنينة، لأنه يحس بأن له سندًا قويًا في هذه الحياة فيبعثه هذا على التغلب على مشكلاته والنظر إلى الحياة بعين راضية.

والإيمان: هو نظافة القلب والنفس من الوساوس والشكوك – وهو الدعم الذي ينشأ على هذه النظافة للخلق القويم والجسم السليم – والإيمان لذلك يزيل جميع العلل المادية والحضارية في عالمنا المعاصر – إذ أن الأمراض النفسية تزداد مع نشاط الحياة القائمة على المادة وحدها بعيدة عن الإيمان وقوته.

ولكن ما يقلق الإنسان في هذه الحياة؟ أنه قد يقلق من خوف الفقر – وعلى الإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى ويستعين به ويطلب منه أن يحميه من الفقر، ولكن الدعاء لا يكون لطلب الحماية من الفقر وحده، ولكن أيضًا من أشياء أخرى تؤثر في صحة الإنسان النفسية، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال" أبو داود، فالحديث الشريف يربط بين الكفر والفقر – بين الدنيا والآخرة – وقد رأى النبي – عليه السلام – أبا إمامة في المسجد في غير أوقات الصلاة، فقال له: "ما لي أراك يا أبا إمامة في المسجد في غير أوقات الصلاة"، فقال "يا رسول الله، هموم ركبتني وديون لزمتني"، فقال عليه السلام: "ألا أعلمك كلمات تقولها في الصباح وفي المساء فيفرج الله عنك همك ويقضي دينك"، فقال: بلى يا رسول الله"، فقال له الرسول عليه السلام الدعاء السابق.

وإذا كان الخوف من رئيس أو غيره فعليه أن يعتصم بالله وأن يعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، كما جاء في وصية النبي لعبد الله ابن عباس.

وإن كان الخوف من معصية الله فإن الله سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة على مصراعيه في قوله تعالي: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} "الزمر:53". فهي رحمة واسعة تسع كل معصية وتسع الشاردين جميعًا وتدعوهم إلى الأمل والرجاء، وهكذا في كل ناحية من نواحي المشكلات الحياتية، فقد بدأ الإسلام بالعناية بالناحية الإنشائية حتى تنشأ النفس المسلمة نشأة سليمة قوية فتستطيع أن تؤدي رسالتها في هذه الحياة، فإذا ما ضعفت في وقت من الأوقات لسبب من الأسباب، فإن العلاج الإسلامي كفيل بأن يعيد للنفس المسلمة اتزانها وصحتها.

وبعد فإن هذا الكتاب له أهمية خاصة في مجتمعنا المعاصر، لأنه يناقش مشكلة لعلها أهم مشاكله وقد بذل فيه كاتبنا جهدًا كبيرًا.